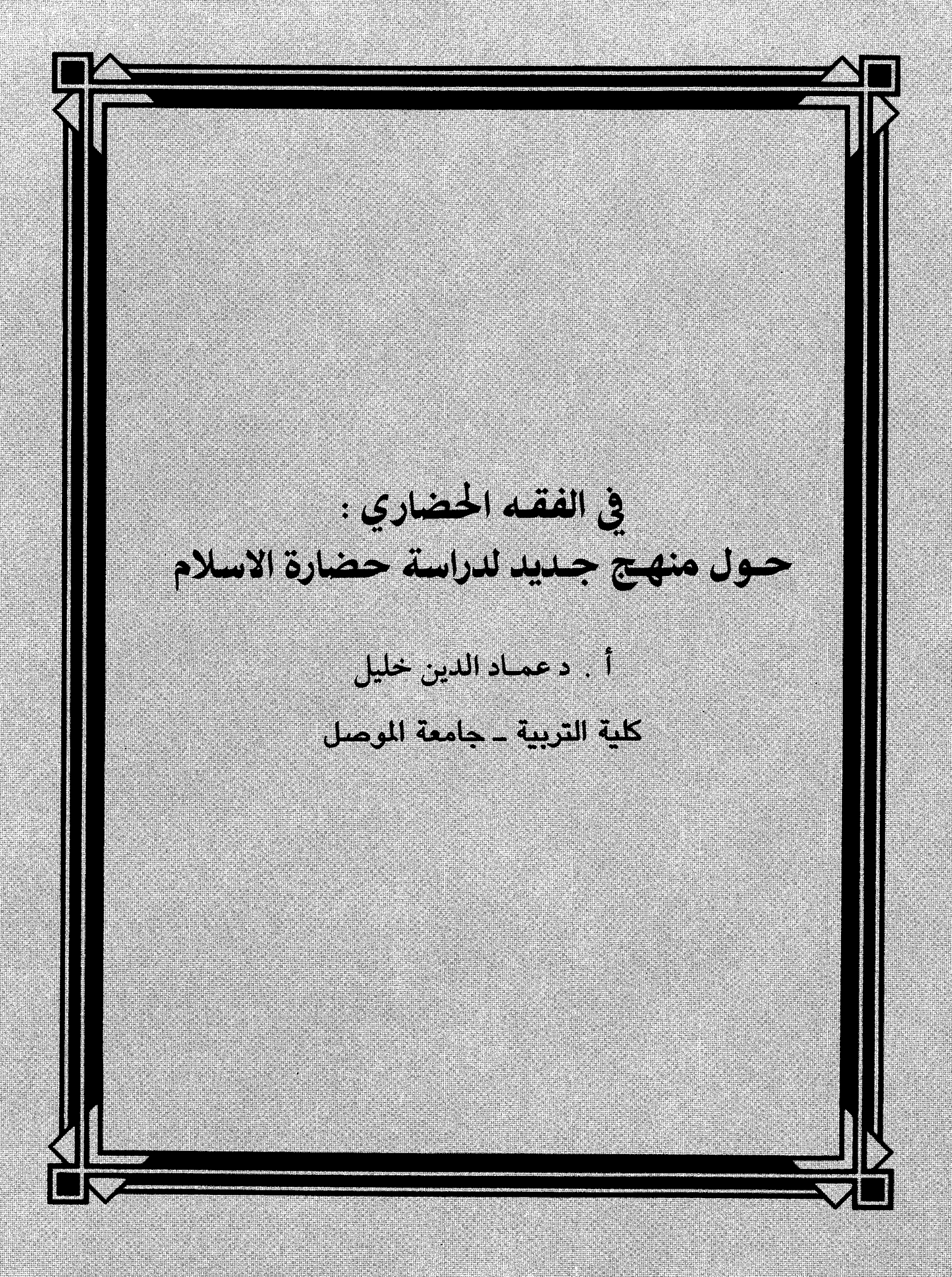


في الفقه الحضاري :
حول منهج جديد لدراسة حضارة الاسلام

أ . د عماد الدين خليل

كلية التربية ـ جامعة الموصل

[١]

تعاني مناهج دراسة الحضارة الإسلامية في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا من عيوب شتى ، أبرزها ـ ولا ريب ـ تقطيع جسد هذه الحضارة وتقديمها للطالب مزقاً وتفاريق . وهي بهذا ستفقد شخصيتها المتميزة وملامحها المتفرّدة التي تمنحها الخصوصية بين الحضارات ، وتصير مجرّد أنشطة ثقافية أو معرفية أو مدنية في هذا المجال أو ذاك، قد تتميز ببعض الخصائص ، لكنها لا تعكس التصوّر النهائي لرؤية المنتمين إليها للحياة والعالم والوجود .

إن معـاهـدنا وجامعاتنا تقطع سياق هذه الحضارة ووحدتها ، فيما تسميه « الضرورات الـزمنية » حينا ، و« المنهجية » حينا آخر ، و« التخصصية » حيناً ثالثاً . فتدرس النشاط الاقتصادي في سنة أو سياق ، والحياة الاجتماعية في سياق آخر ، والحركة العلمية في سياق ثالث ، والنظم الإدارية في سياق رابع . لا بل إنها حتى وهي تدرس كل واحد من هذه السياقات تتعامل معه مقطعا مجزءاً لا يكاد يملك خصوصياته وتميزّه على مستوى التصوّرات التي تصوغه والممارسات التي تنزل به إلى واقع الحياة .

وهكذا تصير دراسة الحضارة الاسلامية ـ في نهاية الأمر ـ لهاثاً وراء مبرّرات الجزية ودفاعاً عن موقف الإسلام من فرضها على أهل الكتاب ، وركضاً وراء قوائم الضرائب الأخـرى ، ومتابعة للمحتسب وهو يتجول في الأسواق لمعاقبة المخالفين . كما تصير استعراضاً وصفياً صرفا لمنظومة الدواوين التي لا أوّل لها ولا آخـر ، وللصراع على منصب الـوزارة وللترتيبـات الأمنية والعسكـرية للشرطة والجيش ، كما تغـدو في السياق العلمي تصنيفاً فجّاً للعلوم النقلية والعقلية ، وإحصاءً للمدونات التي كتبها الأجداد . وفي سياق العمران يلقن الطلاب وصفاً ماديا مملاً لمفردات الريازة وقياساتها وأحجامها بعيداً عن الخلفيات الرؤيوية التي وضعت لمساتها عليها وقدمتها للعالم وهي تحمل خطاباً معماريا عزّ نظيره بين الثقافات .

ويتخرج تلميذ الثانوية والطالب الجامعي وهو لا يكاد يملك معرفة معمقة بخصائص حضارته الإسلامية، وبالمكونات التي تميزها عن الحضارات الأخرى، فضلاً عن أنه يتخرج وهو لا يملك الاعتزاز بحضارته والفخر بها، بما أن النشاط التدريسي في التاريخ والحضارة ينطوي - بالضرورة - على بعد تربوي، لكن هذا البعد يتفكك ويغيب من خلال الخطيئة المنهجية التي لا تكاد تمنح الطالب أي ملمح يجعله يتشبث بتراثه الحضاري باعتباره أقرب إلى مطامح الإنسان ومهماته الأساسية في هذا العالم. بل أننا قد نصل - في نهاية الأمر - إلى نتائج معاكسة تتمثل في رفض حشود الخريجين لتراثهم الحضاري، وإنكاره، وإعلان التمرد عليه، والاندفاع بالمقابل في اتجاه اغراءات الحضارات الأخرى، وإغواء بريقها، الظاهري الخادع، وبخاصة الحضارة الغربية، وبهذا يصير تدريس الحضارة الإسلامية سلاحاً نشهره ضد أنفسنا لتدمير الثقة بمقومات حضارتنا وقدرتها على الاستعادة والفاعلية في صميم العصر، وفي مشاركاتها المحتملة في صياغة المصير البشري، كما يؤكد العديد من المفكرين والباحثين والمستشرقين الغربيين أنفسهم.

[٢]

ما من شك في إن العقل الغربي تفوّق علينا في منهج الدراسة الحضارية، كواحدة من حلقات تفوّقه الراهن. وليست محاولة المؤرخ البريطاني المعاصر (أرنولد توينبي) في مؤلفه المعروف (دراسة للتاريخ) بعيدة عن الأذهان. إنه يتعامل مع الحضارات البضع والعشرين التي درسها عبر استقرائه للتاريخ البشري كما لو كانت كل واحدة منها تحمل شخصية متميزة وملامح تفرّقها عن سائر الحضارات، ونسقاً يجري في عروقها هو غيره في الحضارات الأخرى.

قد تنطوي المحاولة على قدر من التنظير المقحم في مجرى الفعل الحضاري في التاريخ البشري، يسعى لأن يخضع سائر المفردات الحضارية للملمح أو

الخاصية التي تم التأشير عليها سلفاً باعتباره الوجه الأساس للحضارة أو مفتاحها الرئيسي الذي يفسّر كل صغيرة وكبيرة في نبضها وصيرورتها وفاعليتها ومعطياتها .

قد يحدث انسياق وراء إغراء إخضاع الظاهرة الإنسانية لمقولات النظم والمعادلات الهندسية الصارمة من أجل إدراكها والسيطرة عليها ، فيما يذكرنا باستنتاج (الكسيس كاريل) في (الإنسان ذلك المجهول) بصدد طريقة عمل الدماغ البشري ، وقد يحدث وأن تحال الصيرورة الحضارية إلى أنساق الحياة في عالم النبات والحيوان والإنسان ، فتكون الرحلة المحتومة بين الميلاد ، والنمو والازدهار ، ثم الانكماش والتيبس والذبول والزوال ، فيما يذكرنا بإلحاح (ازوالد استبنكلر) في تفسيره الدوري أو الإحيائي للتاريخ .

قد يحدث هذا وذاك ، ونحن نتذكر أن إحدى إدانات الباحث المعروف (سوروكن) لنظرية (توينبي) في التفسير الحضاري للتاريخ ، كانت تنصبّ على أنه ليس بالضرورة أن تنسحب هذه الخاصية الأساسية على كل المفردات والمكونات في نسيج حضارة ما فتدمغها بطابعها ، تماما كما يحدث في عالم (الجينات) أو المحمولات الوراثية بين الأجيال والأجيال .

ورغم ذلك كله فإن (توينبي) وغيره من مفسري التاريخ ومنظريه ، قدموا منهجاً في التعامل مع الحضارات يملك الكثير من الميزات التي تجعله أكثر صلاحية لدراسة حضارة ما عبر رحلة الميلاد والنمو والازدهار والذبول من أي منهج أخر .

منهج يملك بُعده الأفقي الذي يعرف كيف يتابع انتشار الخصائص المتوحّدة في تكوين الحضارة الواحدة ، وبُعده العمقي الذي يتابع سير الظاهرة الحضارية عبر مراحلها المذكورة ويضع يده على خصائص كل مرحلة بما يجعلها أقرب الى الفهم والتكشف .

مهما يكن من أمر ، فإننا اليوم ، ونحن نحاول أن ندرس حضارتنا الإسلامية ، بأمس الحاجة إلى منهج قريب من هذا يسعى لأن يتعامل مع هذه الحضارة كشخصية أو تكوين متميز بدءاًوصيرورة ونمواً وإنكماشاً وتدهورا . فإذا

تذكرنا أن حضارتنا هذه لم تتشكل من العدم ، ولم تلم شتاتها بطريقة ميكانيكية ، من هذه الحضارة أو تلك ، فتكون عالة عليها ، وأنها إنما نشأت بتأثيرات إسلامية، ووفق شبكة شروط وتأسيسات محدّدة صاغها هذا الدين وأنها تكونت في رحم إسلامي وليس في أي رحم آخر ، وأن بصمات كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على حجيراتها وخلاياها ونبضها وجملتها العصبية ، من الأمور التي لا يكاد ينكرها باحث جاد . إذا عرفنا هذا كله ، أدركنا كم تكون جنايتنا على طلبتنا بتقديم هذه الحضارة إليهم مزقاً وتفاريق ، وبنوع من فك الارتباط الساذج أو الخبيث ، الذي يتعمد التعامل معها كما لو لم يكن للتأثيرات الإسلامية في تكوينها أي حضور ملحوظ ، اللهم إلا في خانة مايسمى بالعلوم النقلية المعتقلة في المصنفات العتيقة والبعيدة عن تشكيل الحياة والنزول إلى المؤسسة والشارع والمدرسة والبيت .

[٣]

إننا في عصر ما يسمى بصراع الثقافات . . زمن الغزو الفكري ومحاولات الاحتواء ، ونحن نتذكر مقولة (توينبي) بخصوص الحضارات الست المتبقية في العصر الراهن ، بعد غياب ما يزيد عن العشرين ، وأن هذه الحضارات المتبقية ، بما فيها الحضارة الإسلامية، تلفظ أنفاسها وتدور في فلك الحضارة الغربية الغالبة ، وهي معرّضة في أية لحظة للتفكك والتلاشي في مدارات هذه الحضارة .

فمن أجل مجابهة هذا المصير المحزن ، والتأبّي على إغوائه ، علينا أن نتحصّن في خصوصياتنا الحضارية ، أن نتشبث بعناصرها الفاعلة ومكوناتها القديرة على الديمومة ، وإرهاصاتها الواعدة بالمشاركة في المصير . ولن يتم هذا كله إن لم نملك منهجاً شموليا وليس تفكيكياً ، لدراسة هذه الحضارة ، وإن لم نغرس في نفوس الطلبة وعقولهم خصيصة الاعتزاز بحضارتهم ، والثقة، ليس فقط بقدرتها على الانبعاث ، وإنما بمواصلتها النمو كرة أخرى وتقديمها الوعد

بالخلاص للبشرية المعاصرة التى أوصلتها الحضارة الغربية المادية ، والأديان المحرّفة ، والمحاولات التلفيقية ، إلى طريق مسدود .

وليس عبثاً أن تكون الحضارة الوحيدة من بين سائر الحضارات التي شهدها التاريخ البشري ، الحضارة القديرة على الانبعاث والنهوض مرة ثانية وثالثة ورابعة في قرن عشرين أو واحد وعشرين ، هي الحضارة الإسلامية ، لأنها تملك في أية لحظة ، شبكة شروطها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وتجد في الوقت الملائم ـ دائماً ـ رحمها الذي يمكن أن تتخلق فيه كل مرة لكي تخرج إلى الحياة وهي تحمل قدرتها على التنامي لكي تستوي على سوقها .

إن الحضارة المصرية أو السومرية أو البابلية أو اليونانية أو البولينيزية أو غيرها من الحضارات المندثرة لا يمكن أن تستعيد قدرتها على النهوض كرة أخرى ، لأن شروط قيامها كانت تاريخية صرفة مرهونة بالزمن والمكان ، ولأن خلفياتها التصورية أو الدينية كانت مأسورة هي الأخرى في التاريخ ، ولن يكون بمقدورها أن تحقق حضوراً في القرن العشرين ، أو القرون التالية ، لأنها لا تملك ـ ابتداءً ـ مقومات الديمومة والاستجابة لتحديات العصور .

حضارتنا الإسلامية تظل ، الوحيدة ، من بين سائر الحضارات الأخرى ، قديرة على الانبعاث ، لاسيما إذا تذكرنا قدرة النص القرآني والمعطى النبوي على حماية مصداقيتها بوعد الله ، وشهادة التاريخ ، والوقائع ، على أنه ما من نص ذي أصل ديني قدر على مجابهة التحريف والتزييف كالنص الإسلامي .

[٤]

ليس هذا فحسب ، بل إن التشبث بمنهج أكثر سلامة لدراسة وتدريس الحضارة الإسلامية يغدو ضرورة من الضرورات إذا تذكرنا أننا اليوم مدعوّون لتقديم البديل أو المشروع الحضاري قبالة الفراغ المؤكد الذي أحدثه سقوط جلّ النظم والأفكار والتجارب الوضعية الشمولية والمحدودة على السواء . فلقد

سقطت الوجودية وأعقبتها الشيوعية ، ومن قبلهما تفتّتت دعاوى العرقية المتفوّقة بانهيار ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية ، وسقطت بين هذا وذاك نظريات التفوّق الغـربي المبنية على سيادة الـرجـل الأبيض بانهيار الامـبراطوريات الاستعمارية الكبرى : البريطانية والفرنسية والروسية ، ومن قبلهما الإسبانية و البرتغالية .

أما الأديان المحرّفة فقد وصلت إلى طريق مسدود وراحت تبحث عن منافذ للخروج حتى ولو جاء ذلك على حساب ثوابتها الدينية والأخلاقية من مثل ما تفعله بعض الكنـائس لكسب الأنصـار فيما يتناقض - ابتداءً - مع أطروحات المسيحية وثوابتها .

وليس ثمة غير الإسلام من يقدر على ملء الفراغ ، على تقديم المشروع البديل الذي يكتسح هذا الغثاء ، ويتموضع في قلب العصر ، مشاركاً في صياغة الحـاضر ، واعداً بمستقبل أكثر إنسانيةً . . بعالم أشدّ مقاربةً للوضع البشري المتـأزّم . ويكفي أن نتـذكـر هنا جانباً من أقوال واستنتاجات مفكري الغرب المعاصرين لكي يتأكد لنا أن تأصيل وحماية هوّيتنا الثقافية يعدان ضرورة ليس في إطار عالم الإسلام وحده ولكن على مدى البشرية كلها .

إن هذا الـدين سيعود ، كما يقول المفكر القانوني الفرنسي مارسيل بوازار « الى الـظهـور في العالم المعاصر بوصفه أحد الحلول للمشكلات التي يطرحها مصير الإنسان والمجتمع » وحينذاك - أيضاً - سيكون «في وسع العالم الإسلامي - من بين عوالم أخـرى - أن يقـدّم مشاركة أساسية في تكوين المجتمع الدولي المرتقب»[1] . إن التقدم العلمي المادي - كما يلحظ الرجل - لا يكفي وحده ما لم تضبطه القيم الخلقية فتوجهه لصالح الإنسان ، ومن خلال هذه الرؤية الأخلاقية للنشـاط المـادي يمكن للإسـلام أن يمارس « دوراً حقيقياً في تنـظيم العـالم المعاصر »[2] . وتبدو أهمية المشاركة الإسلامية أيضاً - في نظر بوازار - في التوازن

---

(١) إنسانية الإسلام ، ترجمة د . عفيف دمشقية ، دار الآداب، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ٤٣٩ .
(٢) نفسه ص ٣٦٩ .

الذي يمنحه الإسلام ، بما أنه تعبير عن روح ديني ، لمسيرة المجتمع البشري بين التقدم المادي (التقني) وبين المطامح الروحية والإنسانية عامة ، خاصة وأن « الانخراط في المجتمع التكنولوجي ، والمواجهة بين الإسلام والثورة التقنية ، لا تدفع المسلم إلى إنكار موقفه » الديني ، بل إلى تعميقه أمام العالم وأمام الله ، متوجّباً عليه محاولة إدراك الإمكانيات بشكل أفضل في إطار إسلامي شامل »[١] .

ويحذّر الباحث الأمريكي المعاصر كويلر يونغ من أن « عالمنا هذا الذي مزّقته الجماعات المحتربة والذي لا يعرف حكماً أعلى بيده مصير الإنسانية ، ليجدر به تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسّها الإسلام . ولاشك أن هذه الوحدة في أحسن صورها ، سيكون لها أثرها في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة »[٢] . وثمة « نصيب آخر من الفضل للإسلام ، قد يكون متفرعاً عن سابقه ، ذلك هو ما حققه من التسامح بين أجناس البشر . . إن الإسلام ـ في إطار الأخوة الإسلامية ـ يستطيع أن يُري المسيحية نجاحاً حقيقياً فعلياً في ميادين التسامح البشري »[٣] .

ويقدم المفكر الفرنسي (المسلم) روجيه جارودي في كتابه (وعود الإسلام)[٤] ملاحظات خصبة عن احتمالات المشاركة العالمية لهذا الدين . إن عنوان الكتاب يحمل بعداً مستقبلياً ، وإن ملاحظات صاحبه حول مشاركة الإسلام تتحرك على عدد من المحاور أهمّها ولا ريب : توازن الإسلام ووسطيّته . . قيمه الأخلاقية . . ثم رؤيته الشمولية وقدرته المتميزة على منح المغزى لمسيرة الحياة البشرية في هذا العالم .

ولن يتسع المجال لتقديم الشهادات على هذه المحاور ، ولكننا نجد من الضروري تذكّر السؤال الذي طرحه جارودي في كتابه هذا : « ماذا يستطيع

(١) نفسه ص ٣٨٧-٣٨٨ .

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، تأليف جماعة من الباحثين ، جمع وتقديم محمد خلف الله ، الطبعة الثانية ، القاهرة - ١٩٦٢ م ص ٢٥٦ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) ترجمة دوقان قرقوط ، الوطن العربي ، القاهرة - بيروت - ١٩٨٤ م .

الإســلام أن يقدم لنا ليعدّنا للإجابة على المسؤوليات التي تفرضها قدرة العلم والتقنية على جميع البشر اليوم »[1]؟ وأن نتذكر جوابه : « إن المشكلة كونية ولا يمكن للجواب إلا أن يكون على المستوى الكوني »[2].

وهكـذا تصير مشاركة الإسلام أكثر من ضرورية لأنها لن تدخل الساحة لكي تعالج هذه الجزئية أو تلك ، ولا لكي تمنح العلاج لهذه المشكلة المحدودة أو تلك ، وإنـما لكي تعيد تصميم الحياة البشرية بما يردّ إليها قيمتها الحقّة ، ويمنحها هدفاً ومغزى ، ويربطها بالإنسان نفسه ، محققاً التناغم والانسجام بين أقطاب الكون ، بعد إذ أقام الفكر الوضعي بينها الأسلاك الشائكة ، وكهربها بالكراهية والبغضاء . وهكذا يغدو « بعث الإسلام كبعث الانسانية بأكملها » . إنها ـ إذن ـ « قضية مستقبلنا ، قضية مستقبل جميع البشر »[3].

وثمـة ما يستـوقفنا في (وعود الإسلام) . . شهادة على غاية الأهمية لأنها تتضمن قاعـدة الـدور الإسلامي المنتظر ومنطلقه ورؤيته للعالم : « لا إله إلا الله . . هذا الإثبات الأساسي للإيمان الإسلامي ، وهو يعنى أوّل ما يعني إعلان الحرب على الوثنية واقصاءها . هذه الوثنية التي تفرّخ وتتكاثر في مجتمعاتنا وإننا لنعـرف بالتأكيد ما لشعار (لا إله إلا الله) من قوة هدم وتحرير . فالحوار مع الإسـلام يمكنـه أن يساعدنا على ابتعاث خميرة عقيدتنا الحية فينا ، تلك التي تستطيع نقل الجبال من مواضعها » حقاً : « إن الإسلام يحمل بذور تغيير جذري على مستوى الإنسانية »[4].

---

(١) وعود الإسلام ، ص ٦٧ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفسه ص ١٨٧ .
(٤) نفسه ص ٢١٧ .

عندما جاء الإسلام لم يكن العرب يملكون حضارة متميّزة . كانوا يعيشون حالة استعارة ميكانيكية ـ إذ صحّ التعبير ـ مفردات من هنا وأخرى من هناك ، فيما هو شبيه إلى حدّ ما بوضعنا زمن الصدمة الحضارية الغربية في القرن الماضي . ففي العراق ـ مثلاً ـ استعاروا الكثير من المفردات من بلاد فارس ، وفي الشام من البيزنطيين والتأثيرات الهلينية . أما في شمالي جزيرة العرب فلم يكن لهم ـ فيما عدا الشعر ـ معطيات حضارية أصيلة . وتبقى اليمن التي ورثت عن المعينيين والسبأيين والحميريين بعض التقاليد الحضارية ، لكنها لم تكن على أية حال بالحجم الذي يمكنها من الديمومة والتأثير في مجرى الصراع الحضاري بسبب من عزلتها وتضحّلها الفكري . وكان التصوّر الذي يسود هذه البيئات جميعا ـ فيما عدا استثناءات الحنفية المحدودة والأديان السماوية المحرّفة ـ تصوّراً وثنياً جاهليا لا يملك سوّيته المعقولة ولا حتى في حدودها الدنيا . فهي الجاهلية التي تحدّث عنها القرآن الكريم والتي جعلت العرب ، على تحضّر بعض بيئاتهم ، يعايشون واحداً من أشدّ عصور التخلّف الفكري في التاريخ ، شأنهم في ذلك شأن مساحات واسعة من العالم ، يومذاك ، فيما تحدث عنه مؤرخو الحضارات فاطالوا الحديث[1] .

وعندما جاء الإسلام قدر ، بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، على مجابهة الجاهلية ونقل العرب ، أو وضعهم ـ بتعبير أدق ـ في البداية الصحيحة للتشكل الحضاري من خلال شبكة الشروط التي مكنتهم من تجاوز حالة التخلف الفكري الذي هو أساس كل تخلّف ، والانطلاق لصياغة حضارة متميزة قدّر لها على مدى قرون معدودة أن تكون الحضارة الأكثر فاعلية وتأثيراً في مجرى التاريخ البشري . ولقد سبق وأن تحدثنا في غير هذا المكان عن حلقات هذه الشبكة أو المنظومة التأسيسية للفعل الحضاري فلا مبّرر هنا للتكرار .

---

(١) انظر – مثلاً ـ الباب الأول من كتاب أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة الخامسة ، دار العروبة ، القاهرة – ١٩٦٤ م ص ٢٤– ٧٧ .

ولعلّ هناك من يتساءل عن الأسباب التي جعلت بدايات الفعل الحضاري الإسلامي تتأخر لعدة عقود ، والتي دفعت القيادة الراشدة إلى استعارة بعض المفردات الإدارية والفنية من الفرس والروم ، بل حتى قبول اللغات السائدة في البيئات المفتوحة في العديد من تلك الأنشطة ، إذ لم يتم الانتقال إلى مرحلة تجاوز النقل المباشر والاعتماد على الآخر ، وتشكيل الخصوصيات الحضارية إلاّ في منتصف العصر الأموي حيث تمت عملية التعريب المعروفة في سياقي الإدارة والمال ، وحيث تشكلت النويات الأولى للأنشطة المعرفية الإنسانية في مجال اللغة والتاريخ والجغرافيا والآداب والفنون وبعض حلقات العلوم الصرفة ، فضلاً عن علوم القرآن والحديث . ولكن ليس من السهولة بمكان التسليم بمقولة كهذه . . صحيح أن بدايات الفعل الحضاري بمفهومه التنفيذي قد تأخرّت بعض الشيء ، ربما بسبب وجود أولويات جعلت اهتمام أجيال المسلمين الأولى يتمركز عندها ، من مثل ضرورات ومطالب الدعوة في العصر المكي ، وبناء الدولة في بدايات العصر المدني ، وإقامة الوحدة في أخريات هذا العصر ، والدفاع عنها ضد تحديات الردّة في بدايات العصر الراشدي ، ثم الفتوحات الإسلامية عبر هذا العصر الذي اخترقته الفتنة أو الحرب الأهلية لعدة سنوات ، ثم مالبثت أن استأنفت الحركة في أعقاب عام الجماعة (٤١ هـ) وقيام الدولة الأموية .

لكن هذه الممارسات ، إذا أردنا أن نوسّع المنظور ، هي في أساسها ممارسات حضارية تجيء امتداداً طبيعياً للتأسيسات التي وضعها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فمن ذا الذي يستطيع القول بأن ممارسة الدعوة إلى الإسلام في مواجهة الجاهلية ، وإقامة دولة الإسلام في مواجهة القبلية ، وتوحيد جزيرة العرب في مواجهة التجزؤ ، وبدء حركة الفتح الإسلامي في مواجهة الطاغوت العالمي ، لم تكن في أساسها عملاً حضاريا ؟

إن الحضارة كل لا يتجزأ ، فإذا حدث وأن تأخّر بعض حلقاتها عن الفعل أو التنفيذ فمعنى هذا أن هناك أولويات أو ضرورات اقتضت تقديم مطالب أخرى عليها بانتظار اليوم الذي سيتيح لها فرصة التحقق . وهذا هو الذي حدث

فعلاً منذ منتصف العصر الأموي وطيلة العصور التالية حيث ما لبثتْ حضارة الإسلام أن استكملت مقوماتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، بعد أن كانت في المراحل السابقة تبذل جهداً خارقاً لاستكمال أسباب النشوء والانطلاق .

إن الضرورات آنفة الذكر ، وإن كانت تبدو في ظاهرها عقدية أو سياسية أو حتى عسكرية صرفة ، إلا أنها في بُعدها الحقيقي ضرورات حضارية لأنها تعبير عن حالة فكرية تصوّرية استهدفت تغيير الموقف البشري من العالم والكون والحياة والأشياء ، أي تشكيل نسق فكري يكتسب خصوصياته من العقيدة التي شكلته ، وهو في صميمه فعل حضاري أكثر أهمية من الحلقات « التنفيذية » التالية في مجالات الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية .

لقد مورس ـ اذن ـ نوع من التعليق الزمني لهذه المفردات من أجل التحقق بهدف أكبر بكثير ، وهو تعميق وحماية ومدّ شبكة التأسيسات الحضارية التي وضعها الإسلام والتى قُدر لها أن تنشىء في وقت لم يطل كثيراً حضارة متميزة تملك ملامحها المستقلة وخصوصياتها الفكرية وتعاملها المتفرّد مع الوجود والمصير . وهو تعليق لم ينصب على الفعل الحضاري ـ ابتداء ـ أو على مطلق هذا الفعل ، وإنما على حلقات محدّدة منه . بينما في مساحات واسعة من الحياة مضت عملية التأسيس والتعميق والتغيير تعمل عملها من خلال الممارسات الأساسية نفسها : دعوة ودولة ووحدة وفتحاً .

[٦]

ويستطيع المرء أن يلحظ كيف أن تحوّلات جذرية ذات بعد حضاري ، تمّ التأكيد عليها في عصر الرسالة ، وتغذيتها على مستوى القرآن والسنة والممارسة التاريخية ويمكن أن نوجزها في المحاور التالية :

أولاً : التوحيد في مواجهة الشرك والتعدّد .

ثانياً : الوحدة في مواجهة التجزّؤ .

ثالثاً : الدولة في مواجهة القبيلة .

رابعا : التشريع في مواجهة العرف .

خامساً : المؤسسة في مواجهة التقاليد .

سادساً : الأمة في مواجهة العشيرة .

سابعاً : الإصلاح والإعمار في مواجهة التخريب والإفساد .

ثامناً : المنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والظنون والأهواء .

تاسعاً : المعرفة في مواجهة الجهل والأمية .

عاشرا : التوازن والتناغم بين الثنائيات في مواجهة التناقض والنفي والاصطراع .

ويمكن أن نضيف إلى هذا جملة من العوامل والمبادىء والمتغيرات التي تمّ التأكيد عليها في عصر الرسالة وأعانت على إيجاد بيئة ملائمة للفعل الحضاري .

إن الكلمة الأولى التي تنزّلت على محمد ﷺ في غار حراء ، لحظة اللقاء الأول بين الرسول الأمي وجبريل عليهما السلام لم تكن نفياً أو سلبا . لم تقل : لا تقتل . لاتسرق . لاتزن ، وإنما كانت تأكيداً وإيجابا وأمراً بفعل حضاري هو القراءة : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾[1]! القراءة والعلم والقلم ، تلك هي المفردات التي تضمنتها الآيات الأولى من التنزيل والتي وضعت المسلم في قلب العالم وليس بعيداً أو منفياً عنه .

هناك النزوع التحريري للإرادة البشرية وليس كبتها كذلك الذي مارسته الأديان الأخرى . فمنذ اللحظات الأولى أكد الإسلام ، فضلاً عن الدعوة لإعمال العقل في العالم ، على تحرير الإرادة البشرية : ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾[2] .

---

(١) سورة العلق ، الآيات ١ -٥ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٧ .

هناك ـ أيضا ـ دعوة مؤكدة واضحة إلى أن ننظر دائماً الى الأمام وألا نلتفت للوراء . إن هذا الالتفات لضرورات محددة في حالة التلقي عن الآباء والأجداد تراثا معرفيا قد تستهدي به الأمم لتبيّن مواقع الخطأ والصواب ، أما أن يكون عملاً لا وعيياً يقوم على التقليد الأعمى فهذا يتعارض مع ما يريده القرآن الذي نعى على المشركين والمتخلفّين أنهم كانوا يتشبثون بها فعله الآباء والاجداد : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا ﴾[1] ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾[2]. وهي هداية معكوسة يرفضها الإسلام أشد الرفض .

إن توينبي المؤرخ البريطاني المعروف يشير إلى نمطين من التعامل مع معطيات الآباء : نمط التقليد الأعمى في مرحلة السقوط الحضاري ، ونمط الاقتداء بالنخبة المبدعة وخبراتها الخصبة في مرحلة النهوض الحضاري ، والقرآن الكريم يرفض الأولى لأنها تقود إلى التخلف والسكون : ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡ مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[3] .

وهناك رفض لهدر الطاقات التي تعمل ـ أحياناً ـ في غير مجالاتها المرسومة . ان الرسول (ﷺ) يقول : (تَفكَّروا في آلاءِ الله ولا تَفكَّروا في الله)[4]. إنه يدعونا للتفكير في الخلْق الذي يقود إلى العلم بموازاة تأكيد إبداعية الله في العالم والإيمان بوحدانيته ، ويحذرنا من التفكير في الذات الإلهية التي تعلو على الأفهام وتستعصي على القدرات العقلية ، والذي يقود إلى الماورائيات والتعامل التجريدي مع واجب الوجود ومتناهي الأوّل والميتافيزيقا وما يتمخض عن هذا كله من هدر للطاقة العقلية . إنه يريدنا أن نتعامل مع الكتلة الكونية وأن نكشف عن قوانينها

(١) سورة يونس ، الآية ٧٨ .
(٢) سورة الزخرف ، الآية ٢٣ .
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ١٣٤ ، ١٤١ .
(٤) رواه الطبراني والبيهقي والديلمي وأبو نعيم والأصفهاني . ورغم ضعف الأسانيد فإن اجتماعها يكسب الحديث قوة ، ومعناه صحيح .

لتنمية الحياة التي سخّرت إمكاناتها للإنسان من أجل التحقق باستخلافه العمراني في العالم بدلاً من هدر الطاقة فيما هو خارج عن حدودها وإمكاناتها وضرورات صيرورتها الحضارية في الأرض .

وثمة دعوة واضحة مؤكدة لامتلاك ناصية المكان . إن القرآن ينطوي على مئات من النداءات للإمساك بتلابيب العالم وفهم سننه وقوانينه والإفادة من طاقاته : تدبرّوا، تفكروا ، تفقهّوا . . اسمعوا ، انظروا ، اعلموا ، سيروا . . أنه ليس ثمه مكان في العالم لمن لا يعمل عقله وحواسه نظراً وتأملاً ودراسة وسمعاً وتنقيباً وتمحيصا وسيراً في مشارق الأرض ومغاربها . . . إنه فعل دايناميكي مستمر يجعل المسلم ـ لو أحسن الإصغاء للنداء ـ في مركز الفاعلية وفي أقصى وتائرها قدرة على العطاء .

هذه الدعوة ليست عملاً في الفراغ ، ولم يرد منها أن تقدم أماني وأحلاما وإنما هي دعوة لامتلاك ناصية المكان وتوظيفه لعالم مؤمن سعيد يخدم الإنسان ويحرّره من الضرورات ، يمكنه ـ بالتالي ـ من تنفيذ مطالب الإيمان العليا . وتلك هي مهمة الاستخلاف العمراني في العالم ومنهجه . إن التحرّر من شدّ الضرورات ومطالب الكتلة لا يتحقق بالتعبّد المجرّد عن الفاعلية وإنما بالتعبّد المشروط بالفاعلية التي تجعل طاقات الأرض والسماء الدنيا أداة بيد الإنسان .

يقابل هذا كله دعوة لامتلاك ناصية الزمان . يقول الرسول ﷺ : (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها ، فليغرسها فله بذلك أجر)[1]. فحتى اللحظة الأخيرة . . حتى يوم النفخ في الصور ، يتحتم على المؤمن أن يزرع الأرض ، أن يبني ويطوّر ويواصل العمران . إن القرآن الكريم يصف المؤمنين الجادّين بأنهم (يسارعون في الخيرات) وأنهم (لها سابقون)[2] ، والسبق والمسارعة مفردتان زمنيتان تضعان المسلم في حالة سباق متواصل ، واجتياز للمصاعب والعقبات ، وتعامل مع الزمن وفق أقصى حالات

---

(١) ذكره علي بن عبدالعزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) لبدر الدين العتيق، باب الحرث والزراعة .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٦١ .

الشدّ والتوتر والفاعلية . وذلك هو شرط حضاري آخر لا يقل أهمية عن الشروط الأخرى .

[٧]

ثم ما لبثت مرحلة النموّ الحضارى أن بدأت الفعل بعد استكمال مقوّمات النشوء وحماية مطالبه ، وراحت تنفذ معطياتها في جلّ الحلقات الحضارية المادية والروحية والفكرية والسلوكية والمعرفية ، مستعيرة العديد من المفردات والخبرات من هنا وهناك ، من حضارات يونانية وفارسية وبيزنطية وهندية وهلّينية ، ومن ثقافات محلية نبطية وسريانية وقبطية وغيرها ، ولكنها ماكانت تكتفي بالاستعارة أو تقف عند حدود النقل الشيئي الذي يكدّس ولا يبني ، وإنما بذلت جهداً تركيبياً مبدعاً لإعادة صياغة التراث المنقول بما ينسجم والثوابت والمعطيات التي رسمها وأكدها الدين الجديد .

لقد دفعت ظاهرة الاقتباس هذه بعض المؤرخين ودارسي الحضارة إلى القول بالتفسير الميكانيكي لنموّ الحضارة الإسلامية ، كما فعل فيليب حتى ـ على سبيل المثال ـ في كتاب (تاريخ العرب المطوّل)[1] وبغض النظر عن دوافع تفسير متعجل كهذا وعن مسوغات هذا المنهج الخاطىء في تقطيع الظاهرة الحضارية والتعامل معها كما لو كانت أجزاء وتفاريق تقود الدارس للوصول إلى استنتاج خاطىء كهذا ، فإن الذي حدث لم يكن ـ بأية صيغة من صيغه ـ مجرّد محاولة ميكانيكية ، وإنما كان الأمر أبعد من هذا بكثير . إنه إعادة تركيب الجزئيات المقتبسة في كلّ حضاري يملك ملامحه المتميزة ورؤيته المستقلة للكون والعالم والظواهر والأشياء .

والباحثون الأكثر علمية وموضوعية من الغربيين يقفون طويلاً عند هذه المسألة ويقدمون استنتاجاتهم الواضحة تماماً بصدد بنية الحضارة الإسلامية وطبيعة تعاملها التركيبي مع معطيات الآخر .

(١) الطبعة الرابعة ، دار الكشاف ، بيروت - ١٩٦٥ م .

والبحث لا يتسع لاستعراض هذه الاستنتاجات ولذا سأكتفي بالوقوف لحظات عند نماذج منها فحسب ، من مثل قول روبرت برنشفيك أستاذ اللغة والحضارة العربيتين في جامعتيْ بوردو وباريس : « إن تأثير الدين الإسلامي تتجلى قوّته في عدد كبير من عناصر الثقافة الإنسانية : في اللغة والفنون والأدب والأخلاق والسياسة والتركيب الاجتماعي ونشاطه والقانون بحيث لا نستطيع إذا أخذنا الوضعية ككل أن نلاحظ مدنية مستقلة فيها لا تتميز (بالعنصر الإسلامي) فحسب ، بل (بالعامل) الإسلامي أيضاً . لقد أصبحت العقيدة الإسلامية خلال القرن الثاني والثالث (الهجريين) نظاما نما بصورة واسعة في نواحٍ مختلفة ، وكان شديد الرغبة في إظهار تماسكه في كل مدرسة أو نزعة تتضّح في نطاقة . . وهكذا أخذ الإسلام مكانة عملية قدرت له في عدة ميادين ثقافية ، وهو دور المؤثر والمتأثر ، وهو مظهر مزدوج لا يصح الفصل بين جزئيه غالباً الاّ بطريقة مصطنعة»[1] . ويشير رجل القانون الفرنسي المعاصر مارسيل بوازار في كتابه القيّم (إنسانية الإسلام)[2] إلى أن الإسلام « اقترض ولا ريب ، لكنه عرف كيف يحقّق ، بفضل روحه التوفيقي بشكل أساسي ، بناء يحمل طابعه ، فجميع بنائه الثقافي قائم على التكافل والتوفيق : اكتشاف وتقبل وتمثّل وتنمية وتطوير . وقد أضاف إليه الدين تلويناً خاصاً به صادراً عن شعور بالسمو والانسجام ، كما أنه صادر عن نوع من الوحدة في الاستلهام . وكانت مساهمة العالم الإسلامي الثقافية ضخمة»[3] .

ويقول موريس بوكاي الباحث الفرنسي المعروف : « بأن الإسلام قد اعتبر دائماً أن الدين والعلم توأمان متلازمان . فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءاً لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام ، وإن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى

---

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ، تحرير وبناوم ترجمة د . صدقى حمدي ، دار المتنبي، بغداد - ١٩٦٦ م ، ص ٧٤ ، ٧٩-٨٠ .

(٢) ترجمة د . عفيف دمشقية، دار الأداب ، بيروت - ١٩٨٠ م .

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٤٢٥ .

إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية ، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه في عصر النهضة في أوروبا »[١] ويعاين المستشرق الفرنسي دومينيك سورديل الفن الإسلامي من الوجهتين التاريخية والجغرافية فيرى أنه يستحق « على الرغم من نزعته التجريدية التي تدين للإسلام ، وللإسلام وحده بوحدته ، أن يتوّج الثقافة الإسلامية الضخمة التي تتصف بدورها بالوحدة على الرغم من نزعاتها المتباينة ، ومن ثم فلا يبدو لنا الإسلام دينا (فحسب) ولا أمة (فحسب) بل ركناً لحضارة ينعش مظاهرها الدينية والفكرية والفنية أو يكيفّها على الأقل »[٢] إنها « القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة » كما يقول فرانشيسكو كابرييلي ، كبير أساتذة اللغة العربية وأدابها في جامعة روما[٣] « ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة ، والتي نمت في كل اتجاه وأنتجت حضارة موحدة إلى حدّ يدعو إلى الدهشة ، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها »[٤] ويواصل كابرييلي تحليله قائلاً : « من الواضح أننا نعنى بالإسلام هنا كل الحضارة الإسلامية) التي تطورت ، بما لها من مظهر خاص ، من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي والتي قامت على الإيمان برسالة الرسول محمد ﷺ . . ولا ريب أن العقيدة الدينية التي زودت هذه الحضارة ليس بعاملها المشترك فحسب ، بل بمحورها ومظهرها الأساسي أيضاً ، وأن كل مظاهر الحياة الأخرى من مادية وروحية ، ومن سياسية وأدبية واقتصادية واجتماعية ، تحمل طابع هذا العنصر الديني وتنعكس عليها ألوانه وتنمو وتتسع

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والانجيل (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) ، دار المعارف ، القاهرة - ١٩٧٨ م ، ص ١٤ .

(٢) الإسلام ، ترجمة د . خليل الحرب ، المنشورات العربية ، بيروت - ١٩٧٧ م ، ص ١٠٢ .

(٣) تراث الإسلام ، تصنيف شاخت وبوزورث ، ترجمة محمد السمهوري ورفاقه ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت - ١٩٧٨م، ١/١٠١.

(٤) نفسه .

تحت تأثيره » ثم يخلص كابريبلي إلى القول بأن « الطابع الإسلامي إذا غلب على أمة من الأمم لا يمكن محوه البتة »[1].

ويذكر المستشرق الأمريكي أدوين كالغرلي بأن « المسلمين قد هضموا العلم والفلسفة الهلينية ثم حوّروا فيهما ليلائموا بين معرفتهم الجديدة وبين روح العقيدة القرآنية»[2]. أما المستشرق البريطاني المعروف هاملتون جب فيلحظ كيف أن البيئات الثقافية المتنوعة في عالم الإسلام ، من تخوم الصين وسهوب جنوبي روسيا وإندونيسيا وشبه القارة الهندية ، إلى غربي آسيا وشمالي إفريقيا وإسبانيا ظلت تحتفظ « مجتمعة ومنفردة بطابع إسلامي معين مشترك يمكن تبينه بسهولة»[3]. وترى الباحثة الالمانية سيكريد هونكه كيف « كان أثر الإسلام على كل ناحية فكرية أو مادية هو الأساس الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية في إسبانيا»[3]. ويعرف كويلر يونغ ، رئيس قسم اللغات والآداب الشرقية في جامعة برنستون ، المدلول الثقافي للإسلام بأنه يستعمل « بالمعنى الواسع ليدلّ على تلك المدنية المتجانسة ـ رغم تنوعها ـ والتي وجهها وسيطر عليها الدين الإسلامي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً»[4].

وثمة ـ أخيراً ـ تلك الملاحظات القيمة التي قدمها المفكر البريطاني روم لاندو في (الإسلام والعرب) ، والتي يؤكد فيها على أن العلم الإسلامي ـ على خلاف الحال في أوروبا النصرانية ـ لم ينفصل عن الدين قط « والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية . ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى

---

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٢٣، ١٤١ .

(٢) الشرق الأدنى : مجتمعه وثقافته ، ترجمة د . عبدالرحمن أيوب ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ـ بدون تاريخ ، ص ١٧٤-١٧٥ .

(٣) دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة د . إحسان عباس ورفاقه ، دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٦٤ م ، ص ٣-٤ .

(٤) شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة بيضون والدسوقي ، المكتب التجاري ، بيروت ١٩٦٤ م ، ٥٣٠ (في الأصل الالماني: شمس الله تسطع على الغرب).

(٥) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة ، حص ٢٣٢ .

الوجود لإقامة الدليل على (الألوهية) وتمجيدها . من هنا فليس عجيباً أن يكون العلم الإسلامي لم يجرد في أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية ـ كما حدث في الغـرب ـ ولكنـه كان دائماً في خدمة الإنسان »[1] ثم يخلص إلى القول بأن « الحقيقة التاريخية التي لاريب فيها هي أن المسلمين وفقوا ، طوال خمسة قرون كاملة ، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديرو ظهورهم للدين وحقائقه ، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريح وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط»[2] .

[٨]

والآن ، فإن حلقة أخرى من حلقات الحضارة الإسلامية لم تعط الاهتمام الكافي في دراساتنا وتدريسنا لهذه الحضارة ، رغم أهمية هذه الحلقة ، تلك هي ظاهرة التخلّف والتدهور والسقوط .

ولطالما درّسنا طلبتنا ، بإسهاب حيناً وإيجاز حيناً آخر ، عوامل سقوط هذه الـدولة أو تلك من دول الإسلام كالأمويين والعباسيين والفاطميين والعثمانيين لكننا لم نحاول ـ إلّا نادراً ـ أن نقف طويلاً عند ظاهرة تدهور الحضارة الإسلامية نفسها ـ في سياقها التاريخي ـ بعيداً عن الأطر السياسية المحددة ، لمتابعة عوامل الشلل المتشعبة والتأثير عليها بقدر من العمق والوضوح ، فيما يمكن أن يقدّم لنا خبرة بالغة الأهمية تتمثل في احتمالات النهوض من جديد في ضوء فهم وإدراك العوامل التى قادتنا عبر قرون طويلة إلى التدهور والسقوط ، إننا إذا استطعنا أن نحدّد الأسباب وتمكنا بعدها من استجاشة قدراتنا الإيمانية وتحفيز نقاط الارتكاز في تصورنا من أجل تجاوز هذه الأسباب ، نكون قد وضعنا خطواتنا في الطريق الصحيح ، وبدون ذلك فإن أية دعوة أو محاولة للنهوض لن تجيىء بطائل .

---

(١) ترجمة منير البعلبكي ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٧٧ م ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨١ .

ومرة أخرى فإن المشروع الحضاري البديل المنوط بأمتنا الإسلامية في اللحظات الراهنة لن يستكمل أسبابه ، وينطلق من البداية الصحيحة ، ما لم يضع في حسبانه كل العوامل التي قادت تجربتنا الحضارية السابقة إلى الانكماش والضمور . وحينذاك ، وفي ضوء وعي حضاري كهذا ، يمكن أن يتحقق التجاوز والمضي إلى الهدف بأكبر قدر من التحرر من عوامل الشدّ والإعاقة والتعطيل .

إن هذه الحلقة تحمل أهميتها الأكاديمة في سياق دراسة الحضارات ، ولكنها ـ في تجربتنا المعاصرة ـ تحمل ، فوق هذا ، قيمة مضافة لأنها ستعيننا على بناء مشروعنا الحضاري بأكبر قدر من الوعي والاستبصار .

قد تكون هذه الحلقة فرصة لبحث مستقبل لكونها محملة بالتفاصيل والجزئيات والشواهد التاريخية ولذا سيتم الاكتفاء هنا ببعض التأشيرات .

فمنذ زمن بعيد قد يمتد إلى تسعة قرون أو عشرة ، فك المسلمون الارتباط بين الايمان ومقتضياته العملية وراحوا يتعاملون معه برؤية إرجائية تكتفي بالحد الأدنى وتعزل العبادة عن فاعليتها في الأرض . أي أنهم مارسوا عملية معكوسة ، فبينما أراد الإيمان (الإسلامي) أن يضعهم في بؤرة الفاعلية ، أن يجعلهم حاضرين في دائرة الفعل والابداع ، أي متحضّرين ، اختاروا أن ينسحبوا شيئاً فشيئاً ، وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم في الداخل والخارج ، وأن يتحولوا ـ بالتالي ـ إلى كمّ لا يملك القدرة على التنامي ، وبالتالي لا يملك ثقله في مجابهة التحديات التي راحت تتداعي عليه من كل مكان حتى وصلت بالأمة إلى الهزيمة المؤكدة على أكثر من مستوى ، فيما سبق وأن حذر منه الرسول ﷺ في حديثه الشريف : (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها) ، فلما سأله الصحابة (رضوان الله عليهم) : (أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟) كان جوابه : (بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل)[1] .

---

(١) رواه أبو داود .

ومع الموقف الإرجائي سادت روح التقليد والاتباع بدلاً من التجديد والاجتهاد والإبداع التي وضعت الأمة المسلمة في الصدارة بين الأمم ، بسبب قدرتها عبر القرون المبكرة على الكشف والابتكار والإضافة النوعية ، والبحث عن الجديد في السياقات الحياتية والمعرفية كافة . ها نحن الآن في القرون التالية قبالة سيل من الحواشي والذيول والتهميشات التي لا يجد أصحابها في أنفسهم القدرة ، أو الثقة ، لتجاوز التعلّق بمعطيات السابقين وأن يقولوا ما عندهم ابتداءً كما فعل الآباء والأجداد زمن تألقهم الحضاري . ولطالما دعا القرآن الكريم ورسول الله ﷺ في حشود لا تكاد تحصى من الآيات والأحاديث إلى ضرورة العمل والإضافة والإبداع ، وإلى عدم الالتفات إلى الوراء ، إذا اقتضى الأمر ، من أجل الاستجابة للحظة التاريخية والإصغاء لنداءات المستقبل : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] ، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[2] .

وبموازاة السلبية والتقليد كانت خيوط الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي يزداد نسيجها مساحة يوماً بعد يوم لكي يغطي المدى الأوسع فيأكل كالمنشار قدرات الأمة واستعداداتها المتبقية ويقودها أكثر فأكثر صوب مواقع الانعزال والاتكالية والسكون .

ولقد تركت هذه العوامل الثلاثة فراغاً كبيراً في عقل الأمة وروحها وجعلتها تعاني مما يمكن تسميته بانخفاض الضغط الذي يسحب إليه ، بحكم قوانين الحركة التاريخية ، الرياح المدمرة التي تهب عليه من الداخل والخارج فما لبثت أن طغت على الساحة حالات التوجه الرهباني الصوفي المنحرف عن سويته المعتدلة ، المنسحب أكثر فاكثر من مواقع الفاعلية والحياة ، وهبّت على العقول والنفوس سموم الخرافة والسحر والشعوذة والدجل والأوهام فيما سبق وأن حذر منه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أجل ألا يستأثر بالحياة الإسلامية فيسوقها إلى مواقع الشذوذ والانحراف .

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٣٤ ، ١٤١ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٢٣ .

وثمة الخطأ الذي لا يقل أهمية (والخطأ كما يقول السياسي الفرنسي تاليران أكبر من الجريمة) والذي مارسته القيادتان المتأخرتان في تاريخنا : المماليك والعثمانيون . فهما على دورهما المؤكد في مجابهة الخصم وملاحقته ، أهملتا التصنيع بشكل ملحوظ ولم تستجيبا بالقدر المطلوب لتحديات التكنولوجيا الغربية وبخاصة تكنولوجيا التسليح ، وراح الفارق يتزايد بمرور الوقت بين عالم الإسلام المتخلف والغرب المتفوّق ، بحيث أصبح تخطيه أو عبوره في القرن العشرين بحاجة إلى معجزة تصنع المستحيل .

هذا ـ بإيجاز شديد ـ ما كان يحدث في نسيج الحياة الإسلامية فيدمر العقول والنفوس والأرواح ويصدّ الأمة عن التحقّق بمطالب المجابهة والقوة وحماية الذات .

ومن الخارج هبّت أعاصير أخرى لا تقل ضراوة وعنفاً ، لكنها ما كانت لتؤدي مهمتها المدمّرة ، لو أن الأمة امتلكت الحدّ الأدنى من مقتضيات البقاء التي أكد عليها الإسلام ودعا إلى التحقق بها صباح مساء .

لقد كان على عالم الإسلام ان يصارع الغزاة الخارجيين المحمّلين بكل حيثيات الغزو بدءاً بتجاوز المطالب الأخلاقية والإنسانية التي يعرفها المسلم جيداً في لحظات الصراع ، وانتهاءً باستخدام السلاح الأكثر فاعلية لسحق الخصم . كان على عالم الإسلام أن يصارع الغزاة لمدى يقرب من ألف عام !! كانت الغزوات الخارجية تضربه خلالها الواحدة تلو الأخرى ، دون أن تترك له فرصة لالتقاط الأنفاس وإعادة ترتيب أوضاعه وقدراته بما يمكنه من حماية الأرض والذات . ولقد استنزف هذا من الأمة المسلمة الشيء الكثير وأعان عوامل الشدّ والتخلف والإعاقة على أن تزداد فاعلية وامتداداً على حساب عوامل التقدم والإبداع والصعود .

فمنذ أخريات القرن الخامس الهجري رمت أوروبا بثقلها تحت مظلة الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمن ، ثم مالبثت الهجمات المغولية ان لحقت بها لكي ترمي بثقل آسيا الوسطى ، بكل عنفه وقسوته وبربريته ، عالم

الإسـلام على مدى يقرب من القرن . وتتابعت من بعدهما الغزوات : حركة الاسترداد الإسباني (الريكو نكويسنا) التي نفّذت ، بعد انتصارها ، واحدة من أبشع عمليات الاغتيال الديني والفكري والحضاري والجسدي في التاريخ . . حركة الالتفاف الإسباني ـ البرتغالى . . حركة الاستعمار القديم . . وصولاً إلى الاستعمار الجديد (الامبريالية) بجناحيه الرأسمالي والشيوعي وظهيره الصهيوني .

وعنـدمـا أطـل ما سمي خطأ بعصر النهضة ، بسبب من ارتباطه بالغزو الفرنسي لمصر في أخريات القرن الثامن عشر ، كان الفارق في المدنية ، وبخاصة تكنولوجيا القوة ، قد ازدادت هوّته اتساعاً بيننا وبين الغرب ، الأمر الذي يفسر إلى جانب عوامـل عديدة أخـرى ، فشل معظم محاولات الإصلاح والحركات الجهادية التي صفيت الواحدة تلو الأخرى . لم يكن يعوزها الفكر ولا الإيمان ولا الفدائية ، ولكن وببساطة تامة كان يعوزها السلاح ! .

لقـد قامت حركـات المقـاومـة كالسنـوسية والمهدية وغيرهما كردّ فعل ضد الاستعمار وكان عليها أن تنوء بعبء الفارق الكبير في التسليح ، فضلاً عن زحم الاندفاع الستراتيجي للقوى الغالبة ورغبتها الأكيدة ـ المبطنة بالبعد الصليبي ـ في احتواء العالم الإسلامي وعدم إتاحة أية فرصة لاستعادته أيما قدر من الحيوية والنمو والاستقلال تحت مظلة الإسلام الذي تأكد للغرب كم أنه الجدار الأشد صلابة في مواجهة الخصم .

ثم أن أية حركة في التاريخ لا تتشكل ـ ابتداء ـ وفق شروط موضوعية ، وإنما تجيء كرد فعـل على حالـة تاريخية ، ستعاني من كثير من عناصر الخلل ونقاط الضعف التي ستكون بمثابة المقتل الذي تغوص فيه سكين الغالب .

باختصار شديد . . . إننا محملون بوقر التاريخ . . تراكم أخطاء الأجداد التي تمحورت عند خطيئة عدم الاستماع جيداً لنداءات القرآن والسنة وما تنطويان عليه من كشف وإضـاءة لقـوانـين الحـركة التاريخية . وعندما استيقظنا وبدأنا فاعليتنا في مواجهة تفوق الخصم كنا قد غيبنا الدين في معظم مساحات حياتنا ، فأصبح الفعل لا برنامج له وضاعت البؤرة التي تستقطب الأفعال ففقدت قدرتها

على التأثير . وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[1] .

في ضوء ما تقدم ، ومن أجل تجاوز المنهج التفكيكي في دراسة حضارة الإسلام يمكن اعتماد السياقات التالية موزعة على سنوات الدراسة الجامعية الأربع دون الدخول في تفاصيل ومفردات كل سياق ، وهي مسائل تم التأشير علي بعضها في الصفحات الماضية ، ويمكن استقصاؤها فيما بعد عندما تدخل المحاولة دور التنفيذ :

السنة الأولى : أصول الحضارة الإسلامية (التأسيسات الإسلامية للفعل الحضاري في القرآن الكريم والسنة النبوية والتطبيقات التاريخية لعصري الرسالة والراشدين) .

السنة الثانية : نمو الحضارة الإسلامية (المعطيات والوظائف والخصائص) .

السنة الثالثة : تدهور وانحلال الحضارة الإسلامية (العوامل الداخلية والخارجية) .

السنة الرابعة : واقع الحضارة الإسلامية ومستقبلها (قبالة تحديات التكنولوجيا والتفوق الغربي ، والنظريات الأكثر حداثة في تفسير التاريخ ، والنظام العالمي الجديد ، ومقومات المشروع الحضاري البديل ، واحتمالات المشاركة العالمية في المصير) .

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٥ .